التفاعلية الرمزية

أهدافـــــها:

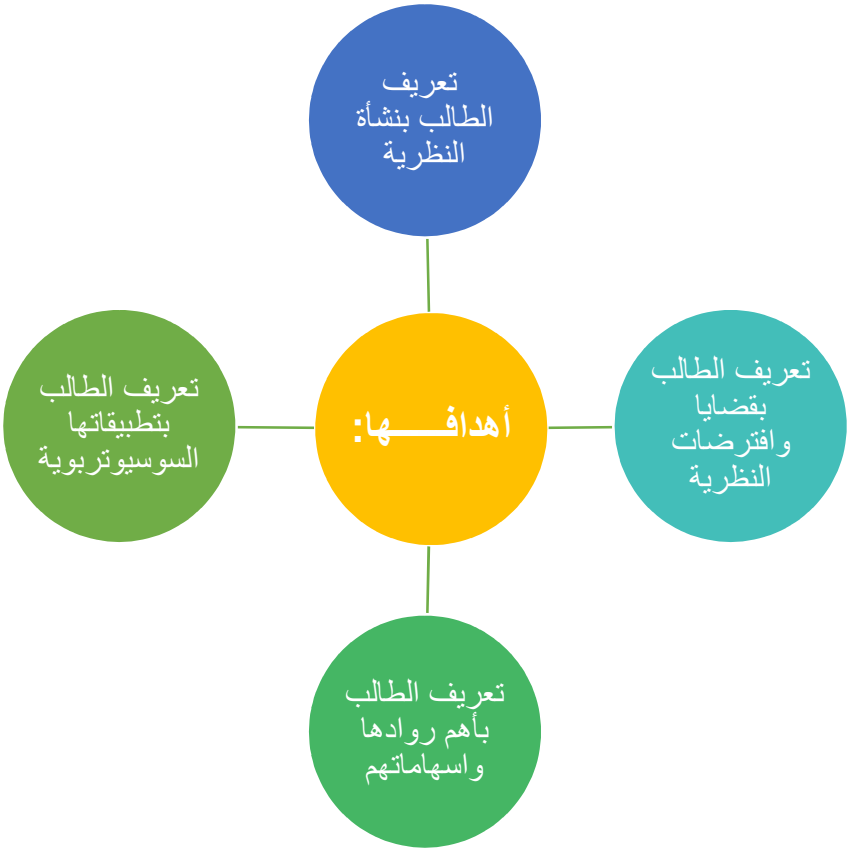

1- الـــــرواد:

- جورج هربرت ميد (1863-1931) عالم اجتماع وعلم النفس امريكي من مؤلفاته: العقل والذات في المجتمع- الحركات الفكرية في القرن التاسع عشر- فلسفة الفعل الاجتماعي.
- هربرت بلومر: (1900- 1986) عالم اجتماع امريكي، اهتم بالتفاعل الرمزي ومناهج البحث الاجتماعي .
- مانفريد كون (1911- 1963) عالم امريكي .
- إفرنج جوثمان (1922-1982) عالم اجتماع وكاتب امريكي .
- هارولد جارفتكل (1917- 2011) عالم اجتماع امريكي اهتم بالتنظيم الاجتماعي (المنهجية الشعبوية).

•

2 - نشأة النظرية:

تعد التفاعلية الرمزية إحدى النظريات السوسيولوجية الاساسية المعاصرة في تحليل الانساقالإجتماعية، حيث تهتم بتحليل الأنساق الاجتماعية الصغرة، منطلقة منها لفهم الوحدات الكبرى، فهي تدرس الأفراد في المجتمع ومفهومهم عن المواقفوالمعاني والأدوار وأنماط التفاعل، وغير ذلك من الوحدات الاجتماعية الصغرى .

وبذلك فهي تعتبر " أقدم تقاليد التحليل السوسيولوجي قصير المدى، ويعود الى بلومر، سنة 1937 في مقال تحت عنوان، علم النفس الاجتماعي صك تعبير (التفاعل الرمزي) وفي مقال لاحق له سنة 1962 بعنوان (المجتمع والتفاعل الرمزي يؤكد بلومر بأن ميد أكثر من أي من الآخرين وضع أساس هذا الاتجاه رغم أنه لم يطور ماينطوي عليه.

وقد كان مركز تطور النظرية هو قسم علم الاجتماع بجامعة شيكاغو في عشرينيات هذا القرن ومن بين مؤسسيها مفكران هما روبرت بارك، ووليام توماس... وقد اعتمدت النظرية على المدرسة الفلسفية النفعية، التي هي مدرسة أمريكية خالصة وعلى التفسير الاجتماعي للإيكولوجيا (أي دراسة العلاقة بين الكائن والبيئة)، وعلى مناهج الدراسة الحقلية التي طورها الانثربولوجيون والتي تعرف بين علماء الاجتماع منهج الملاحظة بالمشاركة، وكما لاحظ أصحاب النظرية الوظيفية فيما بعد، كانت النظرية التفاعلية الرمزية قوية في مجال البحث التجريبي، وضعيفة في مجال التنظير فمثلما يعيش الانثربولوجي في قبيلة في غينيا الجديدة، فإن التفاعلي الرمزي أيضا يعايش جماعة في مجتمعه هو، وإذا شئنا تسمية مؤسس فكري يمكن أن يعتبر منظرها الرئيسي فهو جورج هربرت ميد والابحاث الحديثة حول هذا المنظور كلها تعطي ميد قصب السبق في هذه المدرسة . ومعظم أعماله عبارة عن محاضرات جمعها تلاميذه من بعد وفاته والتي ترجمت من خلال مؤلفه "العقل والذات والمجتمع".

و يشير مفهوم التفاعلية الرمزية إلى التفاعل الذي ينشأ بين مختلف العقول والمعاني، والذي يعد سيمة مميزة للمجتمع الإنساني، ويستند هذا التفاعل الى حقيقة مهمة وهي أن يأخذ المرء ذاته في الاعتبار، وأن يضع الأخرين ممن حوله في حسبان أيضا، بمعنى أن يتوقع ويستوعب أدوار الأخرين، وعلى هذا النحو يمكن صياغة صورة المجتمع الإنساني وهي الصورة التي تعبر تعبيرا صادقا عن التفاعل والتساند والاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع، وبين السلوك الخارجي والذات، ولا تمثل التفاعلية الرمزية منظورا موحدا إذ أنها لا تتكون من مجموعة مشتركة من الافتراضات والمفاهيم المقبولة لدى كل أولئك الذين يستخدمون هذا المدخل، فالكثيرين ممن نحسبهم من التفاعليين بحسباتهم باحثين مستقلين أكثر من كونهم مؤيدين لاتجاه نظري.

كما تعني هذه المدرسة بالقضايا المتصلة باللغة والمعنى، ويزعم ميد أن اللغة تتيح لنا الفرصة لنصل مرحلة الوعي الذاتي وندرك ذاتنا ونحس بفرديتنا. كما أنها تمكننا من أن نرى أنفسنا من الخارج مثلما يرنا الآخرون، والعنصر الرئيسي في هذه العملية هو الرمز، أي الإشارة التي تمثل معنى أو شيئا آخر، والكلمات التي نستعملها للإشارة إلى أمور محددة هي، في واقع الأمر، رموز تمثل المعاني التي نقصدها، فكلمة "الملعقة" رمز نستعمله لوصف الأداة التي نستخدمها للحساء أو للأكل عموما. كما أن الرموز تشمل الإيماءات غير الشفوبة، وأشكال التواصل الأخرى، وثمة قيمة رمزية للتلويح لشخص ما أو القيام بإيماءة ذات دلالات بذيئة. ويرى ميد أن البشر يعتمدون على رموز وتفاهمات وموضعات

مشتركة في تفاعلهم بعضهم مع بعض. ولأن البشر يعيشون في عالم زاخر بالرموز، فإن جميع عمليات التفاعل بين الأفراد تشمل على تبادل الرموز، إن التفاعلية الرمزية توجه اتباهنا إلى تفضيلات التفاعلات الشخصية، والطريقة التي تتم بها هذه الترتيبات لإعطاء المعنى لما يقوله ويفعله الآخرون، وينوه منظرو هذه المدرسة بالدور الذي تؤديه هذه التفاعلات خلق المجتمع ومؤسساته .

كما يذهب أنصار التفاعلية الرمزية إلى أن الذات هي الموضوع الاساسي أو الوحدة الجوهرية للتفاعل ، فالذات تحمل في طياتها كما هائلا بين التفسيرات المختلفة والمعاني المختلفة للموضوعات، فالموضوعات الخارجية- كما يذهب بلومر- لاتحمل معاني داخلية، وإنما توجد فقط في المعاني التي يضفيها الأفراد عليها، والموضوع هنا هو أي شئ يقع خارج نطاق الذات ويتجه نحوه التفاعل سواء كان فزيقيا "كالكرسي" أو تخيليا "كالشبح" أو طبيعيا " كالسحاب" أو مجردا " كمفهوم الحرية" أو متصلا بشخص معين، وهذه المعاني التي يضفيها الأفراد على الموضوعات تظهر بصورة تلقائية أثناء عملية التفاعل، ولاشك أن الرموز (كما تتمثل في اللغة) تلعب دورا أساسيا في خلق وإضفاء معان معينة على الموضوعات الخارجية، إنها وسيلة الذات في التعرف على العالم .

ويقسم ميد الذات إلى الفاعل (الأنا الداخلي **I**) والمفعول (الأنا الخارجي **Me**)

والأنا هي الجزء الإيجابي من الذات، أما المفعول فهو الجزء السلبي، أي هو الجزء الذي يؤثر فيه الآخرون (المهمون والعامون) . والشكل التالي يبين :

الشكل رقم (1) : يبيننموذج التفاعلية الرمزية عن التنشئة الاجتماعية.

(والخبرة الاجتماعية بصفة عامة)

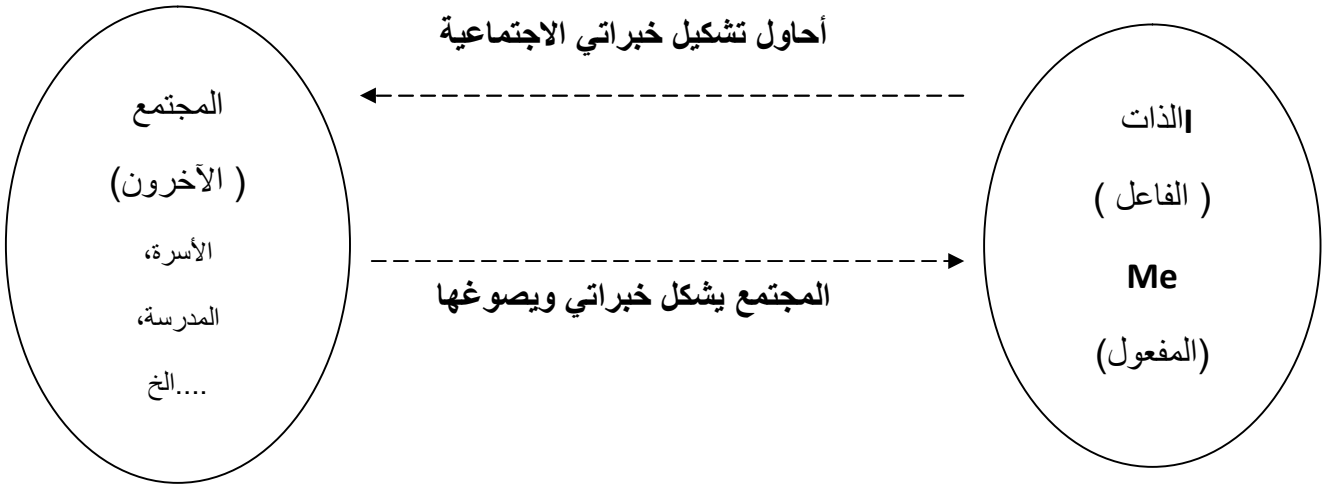

المصدر: (مصطفى خلف عبد الجواد، مرجع سابق)

3 - فرضيات النظرية :

يعطينا هربرت بلومر(1969) أوجزر صياغة لفرضيات النظرية (أيان كريب، 1978) وهي:

- إن البشر يتصرفون حيال الأشياء على أساس ماتعنيه تلك الأشياء لهم.

- هذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني.

- وهذه المعاني تحور وتعدل ويتم تداولها عبر عملية تأويل يستخدمها كل فرد في تعامله مع الإشارات التي يواجهها.

4 قضايا النظرية:

يلخص فورمان دنزن القضايا المنهجية للتفاعلية الرمزية فيمايلي:

- ربط السلوك الضمني (الكامن) بأنماط السلوك الظاهرة فالباحث يجب أن يبدأ من أنماط السلوك الظاهرة ثم يحاول الكشف عن المعاني التي يضفيها الفاعلون على هذه الأنماط السلوكية.

- يركز الباحث على الذات كموضوع وعملية في نفس الوقت، فيدر السلوك من وجهة نظر الأفراد الذين يدرسهم، موضحا تحول الذات عبر المعاني المختلفة في المواقف السلوكية المختلفة.

- يحاول الباحث بعد ذلك أن يربط الرموز والمعاني التي يستخدمها الأفراد بالدوائر الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية الأوسع، وإلا ظل التحليل عند مستواه السيكولوجي.

- إذا كان السلوك يظهر داخل "مولقف" وإذا كان المعنى الذي يضفي على هذه المواقف يؤثر على أنماط السلوك اللاحقة، فإن التحليل الموقفي يجب أن يكون عنصرا أساسيا في الدراسة(تتضمن عناصر الموقف الفاعلين كموضوعات، مميزة التفاعل أو مكانه، المعاني التي تظهر في المواقف. والوقت الذي يستغرقه التفاعل).

- إذا كان التفاعل الرمزي يتميز بأنه تفاعل مستمر ومتغير في نفس الوقت فإن إستراتجيات البحث يجب أن تعكس كلا الجانبين من التفاعل.

5- تطبيقاتها السوسيوتربوية:

تنظر التفاعلية الرمزية للتعليم على أنه ذو بعدين أحدمهما خاص والآخر عام، ووفقا لهذا الرأي فإن المتعلمين يبنون معرفتهم ويتعلمون عندما يكونون قادرين على التفاعل مع العالم الفيزيقي حولهم ومع غيرهم من الأفراد ويمثل هذا الملمح العام لهذا النموذج.

أما المعنى فيبنى عندما يتأمل المتعلمون في تفاعلهم ويمثل هذا الملمح الذاتي (الخاص) وعندما يتوفر للمتعلمين الوقت للتمتع بهذين الملمحين يتسنى لهم ربط الأفكار القديمة (السائدة) بخبراتهم الجديدة ومن سمات التفاعلية أنها تطلب من المتعلمين أن يكتسبوا القدرة على بناء التركيبات والتفكير المركب بطريقة نقدية والقدرة على إقناع الآخرين بآرائهم وممارسة الاستقصاء الموجه والتعامل مع التغيير المفهوم والتفاوض الاجتماعي. وهذا بجانب القدرة على التجريب والاستكشاف والتبرير والتدعيم والدعم، وخلق التفاعل بين القديم والجديد، وكذلك المهارة في تطبيق المعرفة ويتطلب من المعلم مرشدا (أو مسيرا) للموقف التعليمي لمتعلميه ويستثير تحدي أفكارهم، أما المتعلم فتمثل معرفته وأفكاره المبدئية هن الموضوع نقطة البداية ليقوم المعلم بالمساعدة على التوصل للمعرفة عن طريق مختلف الانشطة والخبرات.

ولهذا "فإن أصحاب النظرية التفاعلية يبدءون بدراستهم للنظام التعليمي من الفصل الدراسي (مكان حدوث الفعل الاجتماعي)، فالعلاقة في الفصل الدراسي والتلاميذ والمعلم، هي علاقة حاسمة، لأنه يمكن التفاوض حول الحقيقة داخل الصف، إذ يدرك التلاميذ حقيقة كونهم ماهرين أو أغبياء أو كسالى، وفي ضوء هذه المقولات يتفاعل التلاميذ والمدرسون بعضهم مع بعض، حيث يحققون في النهاية نجاحا أو فشلا تعليميا .

وقد أجريت عدة دراسات وأبحاث لمحاولة فهم طبيعة هذا التفاعل الصفي، سواء كان بين التلاميذ فيما بينهم، أو بينهم وبين مدرسيهم، ومدى تأثير ذلك في تحصيلهم الدراسي، وفي بناء شخصياتهم، وتشكيل مفاهيم الذات عن قدراتهم و انجازاتهم العلمية.

وهكذا اهتم أنصار هذا الاتجاه من علماء اجتماع التربية بدراسة آلية التفاعل الرمزي داخل الحجرات الدراسية على ضوء القواعد التي يحددها المدرس ويميز بها بين التلاميذ على ضوء عملية الفهم والقصد المميز للوعي والشعور لدى كل من الطالب والمعلم.

- كما حاولوا تفسير السلوك الدراسي وانعكاساته على عمليات التنشئة الاجتماعية، ومستويات الاستيعاب، والقدرات العقلية، وعلاقتها ببناء المناهج الدراسية .

- المشكلات الأسرية ونوعية البناء الطبقي والأسرى.

- تحليل العوامل الداخلية للمدرسة، التي تشكل أنماط السلوك، وطبيعة الحياة المدرسية والمناخ المدرسي، والثقافات العامة والفرعية داخل المؤسسة التعليمية، وتأثير المدرسين على اتجاهات وميول تلاميذهم.

- كما عالجوا قضية تكوين المدرسين ونوعية مهاراتهم التعليمية والمعرفية، والتدريسية، وتأثيرها على تحصيل التلاميذ وعلى تنشئتهم الاجتماعية.

- تأثير البيئة الخارجية التي تحيط بالمدرسة، سواء كانت المحلية منها، أو المجتمع بصفة عامة، وكيفية قيام النسق المجتمعي الأكبر في تحديد سياسات المؤسسة التعليمية واديولوجيتها.

وفي الواقع، هناك العديد من الدراسات الميدانية التي تبنت المدخل التفاعلي الرمزي في دراسة المدارس والمؤسسات التربوية، والتي ركزت على استخدام طرق البحث وجمع البيانات والإدارات المهنية المتعددة التي يستخدمها أصحاب الاتجاه السيكولوجي في دراسة المواقف وعمليات التفاعل والمشكلات المرتبطة بنوعية الحياة المدرسية أو داخل الفصول الدراسية، أو علاقة المشكلات بنوعية الوسط الاجتماعي والبحث النفسي والاجتماعي، الذي يحيط بالمدرسة والتلاميذ ودراساتهم في نفس الوقت . ومن أهم هذه الدراسات:

- دراسة ويلاردوللر، حول "سوسيولوجية التدريس"، واعتبرا المدرسة عضو اجتماعي، وهي وحدة التفاعل بين الشخصيات، وانصب اهتمامه على دراسة أنماط التفاعل ذات الطابع التفاعلي الرمزي داخل المدرسة، كما ركز واللر على دراسة أنماط التفاعل وتقييم مدى اختلافها بين الأفراد بالنسبة لنوعية المدارس سواء، كانت مدارس عامة أو خاصة، إلى جانب دراسته لاختلاف أنماط التفاعل والمواقف العامة وسلوكية الأفراد وأدوارهم الوظيفية والمهنية والطلابية، وأنماط العلاقات الاجتماعية في ضوء دراسة متغيرات مثل البناء السياسي للمدرسة، وطبيعة الوسط الاجتماعي والاقتصادي والطبقي والبيئي، كما أشار إلى اختلاف المدارس حسب البيئة الايكولوجية (المناطق الريفية تختلف عن المدينة).

- إضافة إلى دراسة أرون سيكرورلو جونكيتسوس، عن صناع القرار التعليمي في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذا دراسة نيل كيدى عن نمط المعرفة للفصل الدراسي والتى اجريت في المملكة المتحدة. وكذا دراسة كل من نيش، وجاكسون، وهارجرافس. وروثومثال، ووودس، وديلامونت، وميلتر، وبيكر، وغيرهم من الباحثين.

6- تقييم النظرية:

إن التفاعلية الرمزية أقل النظريات ...إكتمالا، ويصفها بول روك (1979) بالغموض المتعمد، ذلك أنها تتنوع أشكالا عديدة، ويبدو أن وجود النظرية اعتمد مدة طويلة على تداولها شفاهة أكثر من اعتماده على كتب مدرسية معتمدة، لكن العقد الماضي شهد محاولات لإعطاء النظرية صفتها المؤسسية ووضعها على شكل نسق متكامل وهو ما يوثقه 1991 بلومر، وهي محاولات تقلل من قيمة النظرية بعض الشئ

وهناك الكثير من الانتقادات التي وجهت الى هذه النظرية ومن أهمها:

- لم يحدد ميد الفرق بين الأنا والذات.

- أغلب مفاهيمها غامضة وتقدم صورة ناقصة عن الفرد.

- بالنسبة لميد:

- غموض الرموز والإشارات في عملية الاتصال والتبادل، وعدم الوضوح والتفسير بين عملية اللغة والكلام ووظيفتهما في عملية التفاعل الاجتماعي.

- وجود العمومية في التفسير والتحليل خاصة في مسألة العلاقات بين الفرد والمجتمع والنسق الشمواي، أن عملية تطور المجتمع تبدو عامة جدا وغير واضحة.

- وعموما تفتقد التفاعلية الرمزية للصرامة العلمية ولا تستخدم الاستنباط المنطقي.

- هذه النظرية تغفل جوانب مهمة في البنية الاجتماعية، كالصراع والقوة والتغير، النسق الاجتماعي، النظام، الحضارة.

- من الصعوبة دراسة النفس البشرية من خلال التعاريف الإجرائية، لأن النفس متطورة ومتغيرة، كما أننا نجهل كيف استطاعت النظرية التفاعلية من دراسة النفس البشرية من خلال دراستها لنشاطات التفاعل اليومي.

وعموما " التفاعلية الرمزية إذن نظرية لدراسة الافراد، نظرية خاصة بالفعل الاجتماعي، ولا تحاول في أوضح أشكالها أن تصبح نظرية للمجتمع، وتفسيرها للفعل هو وجزؤها النظري بسيط للغاية ولكن يمكن أن يرى ذلك أختيار مقصود لمصلحة استيعاب بعض تعقيدات مواقف الحياة الفعلية. والمهمة التي تشير إليها ، هي تطوير تفسير نظري أكثر دقة وشمولا يستوعب أكبر جانب من أفعال البشر دون أن يفقد ذلك التفسير تعقيدات العالم الفعلي.